رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا وكلّ معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه أبدا لا يغتر به إلاّ أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة (ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدٍّ وتشمير فى الطلب وممارسة للكتاب والسنّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور) والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال *

كتاب ذم الغرور

أن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة . ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . والمغرور هو الذى لم تتفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا . وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا . ولما كان الغرور أم الشقاوات . ومنبع المهلكات . لزم شرح مداخله ومجاريه . وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه (فالموفق من العباد . من عرف مداخل الآفات والفساد . فأخذ منها حذره . وبنى على الحزم والبصيرة أمره) *

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته ﴾

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الآية كاف فى ذم الغرور وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ ﴾ فالغرور هو سكون النفس الى مايوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم *

وأشد الغرور غرور الكفار . وغرور العصاة والفساق . فأما غرور الكفار[1] فقد أشير اليه فى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وعلاج هذا الغرور إما التصديق بالايمان واما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الايمان فهو أن يصدّق الله تعالى فى قوله ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ وفى قوله عزّ وجلّ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ وقوله ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقوله ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك

---

(١) يدخل فى الكفار الدهرية الطبيعية فهذا البحث والاحتجاج ينفعان فى القامهم الحجر فليكن على بال منك فانه مهم جدا اه مختصره

الله رسولا فكان يقول نعم فيصدّق . وهذا ايمان العامة . وهو يخرج من الغرور *

وأما المعرفة بالبيان والبرهان فان تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر فى دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فانه أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم و يعمل به ولو بقى معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لاعلم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر فى علمه بسببه . ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم . وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء . فكما أن قول الصبيّ والمعتوه لايزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبيّ الذى استرقته الشهوات لايشكك فى صحة أقوال

الأنبياء والعلماء ـ وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يبعث على العمل لا محالة والغرور يزول به *

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم . إنّ الله كريم وإنا نرجو عفوه : واتكالهم على ذلك واهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدّين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصي العباد في بحار كرمه وانّا موحدون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستدرجاتهم التمسك بصلاح الآباء وعلوّ رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . أينسى المغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يُرِدْ فكان من المغرقين ﴿ قالَ رَبِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أهلِي ﴾ فقال تعالى ﴿ يانوحُ إنّهُ لَيْسَ مِنْ أهلِكَ إنّهُ عَمَلٌ غيرُ صالِحٍ ﴾ وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه . ويَرْوَى بشرب أبيه . ويصير عالما بعلم أبيه . ويصل الى الكعبة ويراها بمشي أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس *

﴿ بيان الغلط في تسمية التمني والغرور رجاء ﴾

(فان قلت) فأين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو

رحمته ومغفرته وقد قال : أنا عند ظن عبدى بى (فالجواب) أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال ﴿ الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفسَهُ وعَمِلَ لما بَعدَ المَوتِ وَالأحمَقُ مَنْ أتبعَ نَفسَهُ هوَاها وَتمنّى عَلى اللهِ الأماني ﴾ وهـذا هو التمنى على الله تعالى غيَّر الشيطان اسمه فسمّاه رجاء حتى خـدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إنّ الّذينَ آمنوا وَالّذينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا في سَبيلِ اللهِ أولئِكَ يَرجُونَ رَحمةَ اللهِ ﴾ يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزَاءً بِما كانوا يَعمَلونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإنّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكم يَومَ القِيامَةِ ﴾ أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعـد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا . وهـذا للفرق بين الرجاء والغرة . قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال : هيهات هيهات . تلك أمانيّهم يترجحون فيها . من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه *

وكما أن الذى يرجو فى الدُّنيا ولدا وهو بعدُ لم ينكح فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحا ولم يترك المعاصى فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح بقى متردداً فى الولد يخاف ويرجو فضـل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم الى أن يتم فهو كيّس . فكذلك إذا آمن

وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لايقبل منه ويرجو أن يثبته حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لايميل الى المعاصى فهو كيّس . ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ *

﴿ موضع الرجاء المحمود ﴾

فان قلت فأين موضع الرجاء المحمود فاعلم أنه محمود فى موضعين *

(أحدهما) فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال تعالى ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور *

(الثانى) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاطُ العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكّر قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ الآيات *

فالرجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثانى يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر (فكل توقعٍ حثّ على توبةٍ أو على تشمرٍ فى

العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا الى البطالة فهو غِرّة) كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل ففتره الشيطان عن التوبة والعبادة وقال له لك رب كريم فهذا غرّة وعند هذا يجب أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وأنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد وقد خوّفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغترّ به *

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدُّنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور وقد كان السلف يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصي وانهماكهم فى الدُّنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد قال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ . ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ ﴾ والقرآن من أوّله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكّر فيه متفكّر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه *

﴿ بيان بعض أصناف المغترين ﴾

فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان لا يعذب مثلهم ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا ان العلم انما يراد لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسْفارًا ﴾ فأي خزي أعظم من التمثيل بالحمار *

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَنظُرُ إلى صُوَرِكُمْ ولاَ إلى أمْوالِكُمْ وَإنَّما ينظُر إلى قلوبِكمْ وأعمالِكُمْ ﴾ فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء قبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة *

وفرقة اقتصروا على علم الفيصل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها

وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم اما من العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه ومثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى ان ذلك يغني عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات . فلا بد من شربه وصبره على مرارته . على انه بعدُ على خطر من شفائه *

وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن انه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال : انهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فان الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوّة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم *

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أخلاق النفس والزهد والاخلاص وهم مغرورون يظنون بأنفسهم انهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله لحرصهم

على السمعة وحسدهم لمن يتقدّمهم من أقرانهم وغيظهم على من يثنى على معاصريهم وجمعهم لحطام الدُّنيا فهؤلاء أعظم الناس غِرّة *

وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدُّنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدُّونها من غير إحاطة بمعانيها ولو في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزُّهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم *

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها كمن ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف أدوات فاللب هو العمل والذي فوقه كالقشر للعمل فالقانعون به مغترُّون إلاّ من اتخذه منزلا فلم يعرج عليه إلاّ بقدر حاجته فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل فحمل نفسه عليه فصفاها من الشوائب والآفات *

﴿ غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة ﴾

منهم فرقة تعمقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضي المحكوم بطهارته في الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء

إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام *

ومنهم فرقة غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ـ على زعمه ـ وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه ـ على زعمهم ـ يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم *

وفرقة تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج في جميع صلاته لايهمه غيره ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلاّ بما جرت به عادتهم في الكلام . ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرّة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل *

وفرقة اغتروا بقراءة القرآن فيهذرمونه هذرمة وربما يختمونه في اليوم والليلة مرّة ولسان أحدهم يجري وقلبه يتردد في أودية الأماني إذ لا يتفكر في

معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه . فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه إلاّ أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه. وحفظه يراد لمعناه . ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويفترّ باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وانما هى لذته فى صوته فليتفقد قلبه . وليخش ربه *

وفرقة اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبواطنهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لايقوم بحقه وذلك غاية الغرور *

وفرقة اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ثم يحضر البيت بقلب ملوّث بذميم الأخلاق

لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور *

وفرقة جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة وتراه يقول قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ثم أنه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء

وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال أنه من المجاورين الزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور *

وفرقة زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد أو المدارس وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب بالرياسة والجاه أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق. وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الناس وينظر اليهم بعين الاستحقار ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو عن توقير الأغنياء وتقديمهم

على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفى العُبّاد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرّياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذى تقوى وخلقٌ واحدٌ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدّق به وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه *

وفرقة حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى و بصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذّة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أوّل الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ﴿ ما تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ﴾ *

﴿ غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة ﴾

ففرقة منهم اغتروا بالزىّ والهيئة والمنطق فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض

الصوت فى الحديث ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأ منها *

وفرقة ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب . ولا يَعرِف هذه الأمور إلاّ بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامّات كلمات فهو يردّدها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوّلين والآخرين . فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدّثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردّدها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الأسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ويقول أنهم عن الله محجوبون ويدّعى لنفسه الوصول الى الحق وأنه من المقرّبين وهو عند الله من المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين . لم يحكم قط علما . ولم يهذّب خلقا . ولم يرتّب عملا . ولم يراقب قلبا . سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه *

وفرقة وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لاوزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله . وانما نخوض فى الدنيا

بأبداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبيـة فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبـة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها . والاباحية من الكفار المارقين. نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين *

وفرقة ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخـذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال فيجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم . وما باعثهم إلاّ الرياء والسمعة *

وثمة فرق أخر لايحصى غرورها . والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول *

﴿ غرور أرباب الأموال ﴾

والمغترون منهم فِرَق ففرقة منهـم يحرصون على بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخلد ذكرهم أو يذيع صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد يكون بناؤها من جهات محظورة تعرضوا لسخط الله في كسبها وكان الواجب ردها إلى ملاكها إما بأعيانها واما رد بدلها عنـد العجز . وقد يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لايظهر ذلك للناس فيكون غرضهم فى البناء الرياء وجلب الثناء مع أن صرف المال الى من فى جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل وأولى

من الصرف الى المساجد وزينتها . فما خف عليهم الصرف الى المساجد إلاّ ليظهر ذلك بين الناس . وهناك محظور آخر وهو أنه قد يصرف المال الى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهى عنها لشغلها قلوب المصلين والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين فوبال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات مع أنه تعرَّض لما لا يُرضى الله تعالى *

وفرقة ينفقون الاموال فى الصدقات على المساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وافشاء المعروف . ويكرهون التصدق فى السرّ ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على انفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : (فى آخر الزّمان يكثر الحاج بلا سبب . يهون عليهم السفر . ويبسط لهم فى الرزق . ويرجعون محرومين مسلوبين . يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لا يواسيه) وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودّع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرنى بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفى درهم قال بشر فأى شئ تبتغى لحجتك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة أنفس مديون يقضى دينه . وفقير

يرم شعثه . ومعيل يحيي عياله . ومربي يتيم يفرحه . وان قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل . فان ادخالك السرور على قلب مسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام . قم فاخرجها كما أمرناك . والا فقل لنا مافى قلبك فقال يا أبانصر سفرى أقوى فى قلبي . فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له (المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لايقبل إلاّ عمل المتقين) *

وفرقة من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن . وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء . ومن قتلته الحية متى يحتاج الى دواء ولذلك قيل لبشر أن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء *

وفرقة غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلاّ بأداء الزكاة فقط ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء

من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم أو من يحتاجون اليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون الى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . وغرور أصحاب الأموال لايحصى وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور *

وفرقة أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فاذا قصّر عن الأداء الى ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول ياسلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع مايجرى أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيأ فكل وعظ لم يغيّر منك صفةً تغييرًا يغيّر

أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا *

(فان قلت) ماذكرته من مداخل الغرور أمر لايمكن الاحتراز منه إذ لايقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات (قلت) الانسان إذا فترت همته فى شئ أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق فى الوصول الى الغرض حتى أن الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى كل ذلك لأنه همّه أمر دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا وليس ذلك بمحال لانه شئ لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت ارادته وقويت همته بل لايحتاج الى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها *

(فان قلت) قد قربت الامر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لابدّ منها . أما العقل فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الانسان حقائق الأشياء لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة . وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه ويعرف

الدنيا والآخرة . فاذا عرف ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدّة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره مايوصله الى الله تعالى وينفعه فى الاخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا والجاه والمال (وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة . وهوى نفسه أحب اليه من رضاء الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور) فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن العادات اسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلاّ بالمعرفة التى ذكرناها * نسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة *